البديهيات في القرآن وصلاتها بالبلاغة

Nur Hadi

Bidang Akademik Program Pengembangan Bahasa Arab (PKPBA)
Dosen Tetap Jurusan Bahasa dan Sastra Arab,
Fakultas Humaniora dan Budaya, Universitas Islam Negeri (UIN) Malang.
Jalan Gajayana No. 50 Telepon (0341) 570872, Faksimile (0341) 570872 Malang 65144

Abstrak

Al-Qur'an senantiasa menjadi objek kajian yang tak ada batas. Semakin lengkap piranti yang kita gunakan untuk mengkaji, maka semakin banyak pula yang kita peroleh. Berbagai model kajian bahasa seperti ilmu Fonologi (*ilm al-ashwat*), Morfologi (*ilm al-sharf*), Sintaksis (*ilm al-nahw*), Semantik (*ilm al-dalalah*), Balaghah (*ilm al-balaghah*) dan lain-lain, lahir melalui al-Qur'an. Semua itu tidak terlepas dari keberadaan al-Qur'an sebagai kitab suci yang *mu'jiz* sepanjang zaman yang selalu dipelajari oleh manusia, terutama umat Islam. Karena itu, tulisan ini memfokuskan pada peran *badihiyah* (kemampuan alami) yang telah ada pada diri manusia sebagai bekal untuk mengenal ayat Allah.

Kata Kunci

Badihiyyah, al-Qur'an, al-Balaghah.

مقدمة

للقرآن الكريم أكبر شأن في أمر الإسلام والمسلمين، فهو هديهم في شريعته وهو المنار الذي يستضاء به في أساليب البلاغة العربية، بل هو المنبع الصافي في الذي ينهلون منه فلسفتهم الروحية والخلقية. وهو بالجملة، الموجه لهم في الحياة والمعاملات وشتى المظاهر الاجتماعية.

فلا غرو أن يكون القرآن موضع عناية المسلمين منذ القديم، فقد تتابعت أنواع التأليف في أحكامه وفي تفسيره وفي بلاغته وفي لغته وفي إعرابه. حتى لقد ازدهرت في الثقافة الإسلامية ضروب من العلوم والفنون حول القرآن وتحت رايته.

وفي هذا الصدد نريد أن نبرهن أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن على نبيه وأمته باللغة السهلة المعقولة على ذهن الإنسان الميسرة للنطق والحفظ، حتى لا يحتاج الإنسان إلى إمعان النظر وتعميق الفكرة وبذل الجهود لفهم القرآن، أو بعبارة أخرى نفهم بعض لغة القرآن بدهية. وبجانب ذلك، هنا بحث عن علاقة سهلة لغة القرآن بالبلاغة.

معنى البديهية

البداهة أول كل شيء، وما يفجأ من الأمر، والبديهة: المعرفة يجدها الإنسان في نفسه من غير إعمال للفكر ولا علم بسببها (الرومي، 1997: 9) والبديهية قضية اعترف بها ولا يحتاج في تأييدها إلى قضايا أبسط منها مثل أنصاف الأشياء المتساوية متساوية (الفيروزبادي، دون سنة: 44/1).

وقد عد ابن حزم رحمه الله تعالى من معارف النفس ما أدركت بحواسها الخمس ثم عد الادراك السادس علمها بالبديهيات ومثل لذلك بعلمها أن الجزء أقل من الكل، وأن الضدين لا يجتمعان، وأنه لا يكون فعل إلا لفاعل، وغير ذلك، ثم وصفها بأنها أوائل العقل التي لا يختلف فيها عقل . وليس يدري أحد كيف وقع العلم بها. وأنها ضرورات أوقعها الله في النفس ولا سبيل إلى الاستدلال البتة إلا من هذه المقدمات ولا يصح شيء إلا بالرد إليها فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيقن وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط إلا أن الرجوع إليها قد يكون من قرب ومن بعد فما كان من قرب فهو أظهر إلى كل نفس وأمكن للفهم، وكلما بعدت المقدمات المذكورة صعب العمل في الاستدلال حتى يقع في ذلك الغلط إلا للفهم القوي الفهم والتمييز (ابن حزم، 1395: 5/1).

وقال الجرجاني: البديهي: هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب، سواء احتاج إلى شيء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك أو لم يحتج، فيرادفه الضروري. وقد يراد به ما لا يحتاج توجه العقل إلى شيء أصلا فيكون أخص من الضروري كقصور الحرارة والبرودة، وكالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان (الجرجاني، دون سنة: 53). وقيل البديهي هو الذي يفرض نفسه فرضا على العقل ولا يترك له أدنى مجال للشك.

وينبغي أن نفرق هنا بين البديهيات والمسلمات، فقد عرف الجرجاني المسلمات بأنها قسم من المقدمات الظنية وهي قضايا تسلم من الخصم ويبنى عليها الكلام لدفعه سواء كانت مسلمة بين الخصمين أو بين أهل العلم كتسليم الفقهاء مسائل أصول الفقه (الجرجاني، دون سنة: 241) .

ويبدو أن العلاقة بين البديهيات والمسلمات علاقة عموم وخصوص، فكل بدهية مسلمة وليست كل مسلمة بديهية، فالبديهيات أخص من المسلمات.

ومن أمثلة المسلمات الاحتجاج على الخصومة لا يجد بدا من التسليم به فحين احتج إبراهيم على الملك بأن الرب هو الذي يحيي ويميت، كابر وأنكر التسليم بذلك فغالط وادعى أنه يحي ويميت فرد عليه إبراهيم عليه السلام بقضية مسلمة لا يستطيع معها المكابرة "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب" (البقرة: 258)، فلم يستطع الملك إنكار هذه القضية "فبهت الذي كفر".

ومن أمثلة ذلك الاحتجاج بالمبدأ وهو مسلم لإثبات المعاد على من ينكره "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" (يس: 78-79).

ومثل هذه المسائل والقضايا وإن كانت مسلمة إلا أنها تحتاج إلى نظر وكسب ولا يجدها الإنسان في نفسه من غير إعمال للفكر ولا علم بسببها مما هو خاص بالبديهيات. ولعل يظهر بهذا النوع الذي نريد دراسته هنا من القضايا التي تناولها القرآن الكريم وهي القضايا التي يستغرب التالي للقرآن والمتدبر لمعانيه النص عليها في القرآن مع أن حصولها لا يتوقف على نظر وكسب ولا يختلف فيها عقل، فقوله تعالى: "تلك عشرة كاملة" (البقرة: 196) بعد قوله "فصيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم" قضية بديهية لا يحتاج إدراكها بعد توجه العقل إلى شيء أصلا.

وكذا قوله تعالى: "ولا طائر يطير بجناحيه" (الأنعام: 38) فإن ذكر طيران الطير بجناحيه مما يدعو إلى السؤال عن السر في النص على ذلك مع أنه من البديهي أن الطير لا يطير إلا بجناحيه فيكفي في إدراك ذلك مجرد ذكرها دون ذكر آلة طيرانه فهذا لا يحتاج إلى أكثر من توجه العقل.

والبديهيات تنقسم من حيث مصدر البداهة إلى قسمين:

أولهما: ما جائت بداهته من حيث أن النص الثاني نتيجة بديهية للنص الأول، مثل: "فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم" حيث قال بعدها: "تلك عشرة كاملة" وهي نتيجة حسابية لا تحتاج إلى أكثر توجه العقل ويستند إدراكها إلى النص الأول مع التوجه العقلي الأولى لإدراكها.

ثانيهما: ما جاءت بداهته من التوجه العقلي الأولي دون استناد إلى نص سابق كمقدمة له، مثل: "ثم إنكم بعد ذلك لميتون" (المؤمنون: 15). فإن إدراك هذا الأمر البديهي معلوم لا يحتاج إلى أكثر من توجه العقل توجها أوليا حتى ولو لم يسبقه نص يقرره أو يؤدي إليه بالضرورة.

وقد يعتقد كثير من الناس أن البديهيات بهذا المعنى لم ترد في القرآن إلا قليلا والحق إنها وردت في كثير من الآيات يمر عليها كثير من التالين للقرآن من غير أن يكون في إدراك معناها حسب توقفهم –ولو هنيهة– للتأمل والتفكر ويمرون عليها سريعا وكأن قوة ظهور معناها

عامل على سرعة تجاوزها، وكان حق هذه الآيات أن نقف عندها طويلا لا لاستظهار معناها وهذا قد كفيناه، وإنما للتدبر والتفكر في سر إظهار معناها هذا الظهور وحكمة ذلك.

ولكثير من المفسرين وقفات عند مثل هذه الآيات طويلة عند بعضهم، وقصيرة عند آخرين وهم حين يتناولونها أو دراسة لموضوعها، ونجد أن مثل هذه الوقفات تظهر عند المهتمين في تفاسيرهم بالبلاغة واللغة، ولهذا اتصال البديهيات بعلم البلاغة.

صلة البديهية بالبلاغة

نشأ علم البلاغة كغير من علوم اللغة العربية لخدمة القرآن الكريم وإظهار معانيه وإبراز أساليبه ولذلك كان أغلب الأمثلة والشواهد التي يستدل بها علماء البلاغة من القرآن الكريم، ولا عجب في ذلك إذ إنهم يريدون ضرب الأمثال الظاهرة، والشواهد الواضحة، والدلائل القاطعة، على ما يريدون إثباته من صور البلاغة، وفي القرآن الكريم ما يطلبون وفوق ما يطلبون.

وقد عرف السكاكي البلاغة بقوله: "هي البلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها". وعرفها القزويني بقوله: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" (القزويني، دون سنة: 7).

ونقل الجاحظ تعريفا لأحدهم فقال: "وقال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك" (الجاحظ، 1968م: 75/1).

وإذا كان هذا هو تعريف البلاغة فإنا نجد المسائل البديهية في الآيات القرآنية من أدعى الآيات لإظهار وجه مطابقتها لمقتضى الحال إذ قد يبدو لبعض التالين أن ما قررته لا جديد فيه، بل هو بديهي لا ينكر، وظاهر لا يخفى، فأين هذا ومطابقته لمقتضى الحال، وحين يتصدى البلاغة لمثل هذا فإنهم يكشفون وجوها من أعلى درجات البلاغة، وأجل ما تقتضيه مراعاة حال المخاطب، ويظهرون حكمة ورود الآية على هذا الوجه، وأنه ليس إلا ضرب من التفنن في الأساليب البلاغية، وأخذ بها من جميع أطرافها.

ثم نجد أن البديهيات تدخل في أبواب عديدة من مباحث البلاغة كالإطناب، والتوكيد، والتكميل، والتتميم، وغيرها، وليس في وسعنا تتبع هذه المباحث هنا واقتصاؤها وإنما نشير إلى مبحثين منها من أهمها وأوسعها أعني مبحث الإطناب والتأكيد.

الصلة بالإطناب

والإطناب مصدر أطنب في كلامه إطنابا إذا بالغ فيه وطول ذيله لإفادة المعاني. واشتقاقه من قولهم: أطنب بالمكان إذا أطال مقامه فيه، وفرس مطنب إذا طال متنه، ومن أجل ذلك سمي حبل الخيمة بإطناب لطوله، وهو نقيض الإيجاز في الكلام (العلوي، 1400 هـ: 230/2).

والعلاقة بين الإطناب والبلاغة وثيقة بل عرفوا الإطناب بأنه "البلاغة في المنطق والوصف مدحا كان أو ذما، وأطنب في الكلام: بالغ فيه" (منظور، دون سنة: 576/1). بل عرفوا البلاغة بأنها: "الإيجاز والإطناب"، وإنما جمعوا بينهما وهما نقيضان لاختلاف المقامات فما يصلح في مقام لا يصلح في الآخر، ولهذا قال العسكري: القول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعملا لإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ.

كما روي عن جعفر بن يحيى أنه قال مع عجبه بالإيجاز: متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا، ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا. وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين أن يكتبا في معنى واحد، فأطال أحدهما، واختصر الآخر فقال للمختصر – وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان (الرومي، 1997: 15). وقال غيره: البلاغة الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير مطل.

فإذا عرفت الإطناب ومكانته من البلاغة فينبغي أن تعرف الفرق بينه وبين تطويل والتكرير والترادف، فقد عرفوا الإطناب بأنه "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد" (العلوي، 1400 هـ: 230/2).

وإذا عرفنا الفرق بين الإطناب والتطويل والتكرير والترادف، فإنه ينبغي أن نعرف أن الإطناب ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما يكون متعلقا بالجملة الواحدة من الكلام وهو نوعان:

النوع الأول: ما يرد من الإطناب على جهة الحقيقة بأن يكون معنى اللفظ الزائد هو معنى المذكور، ويكون مغايرا له. ومن أمثلة هذا النوع قولنا: رأيته بعيني وقبضته بيدي، ووطئته بقدمي ودقته بلساني، إلى غير ذلك من تعليق هذه الأفعال بما ذكر من الأدوات.

وقد يظن ظا أن تعليق هذه الأفعال بهذه الآلات إنما هو لغو لا حاجة إليه فإن تلك الأفعال (الرؤية، القبض، الوطء، الذوق) لا تعمل إلا بهذه الآلات (العين، اليد، القدم، اللسان) وليس الأمر كما يظن الظان بل هذا إنما يقال في كل شيء يعظم مناله ويعز الوصول إله أو يصعب تصديقه، أو يشتد إنكاره، فيؤتي بهذه الأدوات على جهة الإطناب دلالة على نيله، أو

لتأكيد وقوعه، كما لو أنكر المخاطب قولا نسبته إليه فقلتَ: لقد قلته بلسانك وسمعته منك بأذني: فمع أن القول لا يكون إلا باللسان وأن السماع لا يكون إلا بالأذن فإن أحدا لا ينكر من قولك، بل يدرك أنك ذكرت ما ذكرت لعلة مقبولة. وعلى هذا النحو ورد قوله تعالى: ذلكم قولكم بأفواهكم. (الأحزاب: 4) لأن هذه الآية إنما وردت في شأن جعل الزوجة الحلال بمنزلة الأم.

النوع الثاني: ما يرد من الإطناب في الجملة الواحدة على جهة المجاز، وهذا كقوله تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلب التي في الصدور" (الحج: 46).

إذ من المعلوم أن القلوب لا تكون إلا في الصدور، إلا أنه لما علم وتحقق أن العمى على جهة الحقيقة إنما يكون في البصر وأن استعماله في القلوب، إنما يكون على جهة التجوز بالتشبيه، فلما أريد ما هو على خلاف المتعارف من نسبة المعنى إلى القلوب ونفيه عن الأبصار لا جرم احتاج الأمر فيه إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقي أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار (العلوي، 1400 هـ: 237/2).

والثاني، الإطناب الذي يكون في الجمل المتعددة وهو أربعة أنواع، هي:

النوع الأول: أن يذكر الشيء فيؤتي فيه بمعان متداخلة، إلا أن كل معنى يختص بخصوصية ليست للآخر، كقوله أبي تمام:

من منة مشهورة وصنيعة ☼ بكر وإحسان أعز محجل

فالمنة والصنيعة والإحسان أمور متقاربة وليس ذلك من قبيل التكرير لأنها إنما تكون تكريرا لو اقتصر على ذكرها مطلقه متغير صفة كأن يقول منة وصنيعة وإحسان ولكنه وصف كل واحدة منها بصفة تخالف صفة الآخر فلا جرم أخرجها ذلك عن حكم التكرير.

النوع الثاني: النفي والإثبات: وهو أن يذكر الشيء على سبيل النفي، ثم يذكر على سبيل الإثبات أو بالعكس من ذلك، ولا بد من أن يكون في أحدهما زيادة فائدة ليست في الآخر يؤكد ذلك المعنى المقصود وإلا كان تكريرا وذلك كقوله تعالى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون. (التوبة: 43-44). فالآية الثانية كالآية الأولى إلا في النفي والإثبات، فإن الأولى من جهة الإثبات والثاني من جهة النفي، فلا مخالفة بينهما إلا فيما ذكرناه خلا أن الثانية اختصت بمزيد فائدة وهي قوله: "وارتاب قلوبهم فهم في ريبهم يترددون" ولو لا هذه الفائدة لكن ذلك تكريرا ولم يكن من باب الإطناب.

النوع الثالث: أن يذكر المعنى الواحد تاما لا يحتاج إلى زيادة ثم يضرب له مثال من التشبيه كقول البحتري يصف امرأة:

ذات حسن لو استزادت من الحسن ☼ إليه لما أصـــــــــابت مزيدا
فهي كـــــالشمس بهجـة والقضيب ☼ اللدن قدا والرميم طرفا وجيدا

قالبت الأول كان كافيا وتاما في إفادة المدح غير أن في البيت الثاني تشبيها أفاد تصورا وتخيلا لا يحصل من المدح المطلق وهذا الضرب له موقع بديع في الإطناب.

النوع الرابع: الاستقصاء في ذكر أوصاف الشيء للمدح أو الذ ونحوهما كقولهم:

لأعلى الورى قدرا وأوفرهم حجى ☼ وأرشدهم رأيا وأسمحهم يدا

وبهذا ندرك منزلة الإطناب في علم البلاغة ومكانته الكبيرة وأنه محيطها الأكبر الحائز على نصيب أكبر من مباحثها، وأن مباحث أخرى ليست إلا من فروعه وإن طالت. وذلك أن المعاني البدهية كما أشرت في تعريفها هي لازم ما سبقها من كلام أو آلته التي لا يكون إلا بها فتبدو لأول وهلة إن لم تكن تطويلا فهي إطناب، ينبغي تعليل اختياره، وتوضيح حكمته، وبيان معناه.

الصلة بالتأكيد

وهو تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره وإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده (العلوي، 1400 هـ: 176/2). وأنواعه كثيرة ومنها التوكيد الصناعي وهو أربعة أقسام:

النوع الأول: التوكيد المعنوي بالنفس والعين وكل وجميع وعامة وكلا وكلتا.(ابن هشام، ج:3، ص: 327: 1386هـ)

النوع الثاني: التأكيد اللفظي وهو تكرار اللفظ الأول، إما بمرادفه كقوله تعالى: "ضيقا حرجا" على قراءة كسر الراء و"وغرابيب سود". وإما بلفظه: ويكون التكرار للاسم والفعل والحرف والجملة، فالاسم مثل: "قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرا"، والفعل "فمهل الكافرين أمهلهم رويدا"، واسم الفعل نحو: "هيهات هيهات"، والحرف نحو: "ففي الجنة خالدين فيها"، والجملة مثل: "فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا".

النوع الثالث: تأكيد الفعل بمصدره وهو عوض من تكرار الفعل مرتين، وفائدته رفع توهم المجاز في الفعل بخلاف التوكيد السابق فإنه لرفع توهم المجاز في المسند إليه. ويكون تأكيد الفعل بمصدره نحو: "وكلم الله تكليما" وتارة يكون تأكيده بمصدره فعل آخر نحو: "وتبتل إليه

تبتيلا" إذ المصدر تبتيلا، والتبتيل مصدر بتل. وتارة يكون التأكيد بمرادفه كقوله تعالى: "إني دعوتهم جهارا" فإن الجهر أحد نوعي الدعاء

النوع الرابع: الحال المؤكدة لعاملها وهي الآتية لتأكيد الفعل وسميت مؤكدة لأنها تعلم قبل ذكرها فيكون ذكرها توكيدا، لأنها معلومة من ذكر صاحبها كقوله تعالى: "ويوم أبعث حيا". فالحياة معلومة من ذكر البعث وكقوله تعالى: "ولا تعثوا في الأرض مفسدين". فالإفساد معلوم من مجرد ذكر العثو وهو أشد الإفساد، وكقوله تعالى: "وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد". فعدم البعد معلوم من "أزلفت" إذ معنى زلل: دنا وتقدم (الفيروزبادي. دون سنة: 399/2).

خاتمة

وبعد عرض البيان السابق عرفنا أن بعض اللغة القرآنية سهلة الفهم وقريب المعرفة من قلوب الإنسان وأفكاره حتى يفهم القرآن بدون الدراسة في المدارس أو الجامعات لمن الناطق بلغته، وكذلك كانت البديهية في القرآن بمعجزته وفصاحته و بلاغة نظمه وأسلوبه لها علاقة وثيقة ومتينة بفن البلاغة. والله أعلم بالصواب.☑

المراجع

ابن حزم، أبو محمد علي. 1395 هـ. *الفصل في الملل والأهواء والنحل*. بيروت: دار المعرفة.

ابن هشام، أبو محمد عبد الله. 1386 هـ. *أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك*. مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

الجاحظ. 1968م. *البيان والتبيين*. لبنان: الشركة اللبنانية للكتاب.
الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف . دون سنة. *التعريفات* ، تحقيق د. عبد المنعم الحنفي. القاهرة: دار الرشاد.
الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان. 1997. *البديهيات في القرآن الكريم* . الرياض: دون مطبعة.
شاهين، شر. 1387 هـ. *ديوان أبي تمام*. بيروت: مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني.
العلوي، يحيى بن حمزة. 1400 هـ. *الطراز*. الرياض: مكتبة المعارف.
الفيروزبادي. دون سنة. *المعجم الوسيط*. بيروت: مجمع اللغة العربية دار إحياء التراث العربي.
القزويني، الخطيب. دون سنة. *الإيضاح في علوم البلاغة*. بيروت: دار الجبل.
مطلوب، أحمد. 1403هـ. *معجم المصطلحات البلاغية وتطورها* . العراق: المجمع العلمي العراقي.
منظور، ابن. دون سنة. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.